المركز الوطني
لتطوير المناهج
National Center
for Curriculum
Development

كتيّبُ نصوصِ الاستماعِ

الصّفُّ التّاسعُ

الفَصلُ الدّراسِيُّ الثّاني

الوَحدةُ السّادسةُ: حكايةُ مَثلٍ
الأمثالُ العربيّةُ

كثيرًا ما نَسمعُ الأجدادَ عندَ وقوعِ حدَثٍ معيّنٍ، أو في أَثناءِ المحاوراتِ، يتكلّمونَ بكلماتٍ موجَزةٍ بليغةٍ، قليلةِ اللّفظِ، غنيّةِ المعنى، تعبّرُ عنِ استجاباتِهم للأحداثِ، وعن آرائِهم في الحياةِ بأسلوبٍ لطيفٍ يُنصِتُ لهُ الجميعُ، وكأنَّ لهُ فعلَ السّحرِ في السّامعينَ. وتُسمَّى هذهِ الأقوالُ الموجَزةُ البليغةُ أمثالًا. وتَتجلّى مكانةُ هذهِ الأمثالِ وقوّتُها في قدرتِها على الإقناعِ والتّأثيرِ؛ إذ تملكُ تأثيرًا بالغًا في القلوبِ والعقولِ؛ وذلكَ لِما لها من قوّةٍ وحيويّةٍ لا يملكُها الوصفُ المباشرُ، وهيَ كثيرةٌ إلى حدٍّ يمكنُنا معَهُ أن نَفهمَ قولَ أجدادِنا: «ما تركَ المثَلُ شيئًا إلّا حكاهُ».

والأمثالُ ظاهرةٌ لُغويّةٌ تمثّلُ خلاصةَ تجربةٍ إنسانيّةٍ متراكمةٍ تنقُلُ تجارِبَ السّابقينَ، ومنَ الحقِّ أنَّ الأمثالَ ليسَت حِكرًا علينا نحنُ العربَ؛ إذ إنَّ لكلِّ أمّةٍ تجارِبَها المتراكمةَ وأمثالَها، بيدَ أنَّ الأمثالَ العربيّةَ حظيَت باهتمامٍ في تراثِنا العربيِّ لا يُعرَفُ لهُ نظيرٌ، وقد بدأَ الاهتمامُ بجمعِ الأمثالِ وتبويبِها في العصرِ الأُمويِّ، ويُروى أنَّ أوّلَ مَن عُنيَ بجمعِ الأمثالِ وما يتعلّقُ بها من قصصٍ صُحارُ بنُ عيّاشٍ. ومعَ مرورِ الزّمنِ اتّسعَت كتبُ الأمثالِ لتَشملَ قصصًا وأخبارًا ملحَقةً بها؛ لتوضيحِ قصصِها ومناسباتِها. ومن أبرزِ هذهِ الكتبِ: كتابُ مَجْمَعُ الأمثالِ للمَيدانيِّ. وقدِ امتازَت هذهِ المؤلَّفاتُ بالجمعِ بينَ المَثَلِ، والحكمةِ، والقولِ المأثورِ، والنّادرةِ، ممّا جعلَها موسوعاتٍ ثقافيّةً شاملةً.

وكثيرٌ من أمثالِنا العربيّةِ لا يمكنُ لنا إدراكُ

أَمْسَحُ الرَّمْزَ

معناها دونَ معرفةِ سياقِها الّذي قيلَت فيهِ، ولا يستقيمُ الحديثُ في هذا السّياقِ دونَ ذِكرِ مثَلٍ عربيٍّ مشهورٍ، حفظَهُ لنا تراثُ العربيّةِ وحفظَ لنا قصّتَه؛ ومِنْ تلكَ الأمثالِ قولُ العربِ: «وافقَ شَنٌّ طَبَقَةَ». فمَن شنٌّ؟ ومَن طبقَةُ؟ وفي أيِّ المناسباتِ يمكنُ أن يقالَ هذا المَثلُ؟

حكايةُ هذا المَثلِ أنَّ رجلًا من دُهاةِ العربِ وعُقلائِهم يُقالُ لهُ شنٌّ أرادَ الزّواجَ بامرأةٍ تكافئُهُ في ذكائِهِ وعقلِهِ، فقالَ: واللّهِ، لأطوفَنَّ حتّى أجدَ امرأةً مثلي أتزوّجُها. فبينَما هوَ في بعضِ مسيرِهِ إذ وافقَهُ رجلٌ في الطّريقِ، فقالَ لهُ شنٌّ: أينَ تريدُ؟ فقالَ: موضِعَ كذا؛ يريدُ القريةَ الّتي يقصِدُها فرافقَهُ، حتّى أخذا في مسيرِهِما. قالَ لهُ شنٌّ: أتحملُني أم أحملُكَ؟ فقالَ لهُ الرّجلُ: يا جاهلُ، أنا راكبٌ وأنتَ راكبٌ، فكيفَ أحملُكَ أَو تحملُني؟ فسكتَ عنهُ شنٌّ، وسارا حتّى إذا قَرُبا منَ القريةِ إذ بزرعٍ قد حانَ حصادُهُ، فقالَ شنٌّ: أَترى هذا الزّرعَ أُكِلَ أم لا؟ فقالَ لهُ الرّجلُ: يا جاهِلُ، ترى نبتًا مُستحصِدًا فتقولُ: أُكِلَ أم لا؟ فسكتَ عنهُ شنٌّ حتّى إذا دخلا القريةَ، لقيَتْهُما جِنازةٌ، فقالَ شنٌّ: أترى صاحبَ هذا النّعشِ حيًّا أم ميّتًا؟ فقالَ لهُ الرّجلُ: ما رأيتُ أجهلَ منكَ؛ ترى جِنازةً تسألُ عنها أمَيّتٌ صاحبُها أم حيٌّ؟ فَسكتَ عنهُ شنٌّ ، وأرادَ مفارقَتهُ.

لكنّ الرّجلَ أبى أن يتركَهُ حتّى يصيرَ بهِ إلى منزلِهِ، فمضى معَهُ، وكانَ للرّجلِ بنتٌ يُقالُ لها طبقةُ، فلمّا دخلَ عليها أبوها سألَتهُ عن ضيفِهِ، فأخبرَها بمرافقتِهِ إيّاهُ، وشكا إليها جهلَهُ، وحدّثَها بحديثِهِ، فقالَت: يا أبتِ، ما هذا بجاهلٍ؛ أمّا قولُهُ: أتحملُني أم أحملُكَ؟ فأرادَ: أتحدّثُني

أم أَحدّثُـكَ حتّـى نقطـعَ طريقَنـا؟ وأمّـا قولُـهُ: أتـرى هـذا الـزّرعَ أُكِلَ أم لا؟ فـأرادَ: هـل باعَـهُ أهلُـهُ فأكلوا ثمنَـهُ أم لا؟ وأمّـا قولُهُ فـي الجِنازةِ فـأرادَ: هل تـركَ عَقِبًـا يحيـا بـهِ ذكـرُهُ أم لا. فخرجَ الرّجـلُ فقعدَ معَ شـنٍّ، فحادثَهُ سـاعةً ثـمَّ قـالَ: أتحبُّ أن أُفسّـرَ لكَ ما سـألتَني عنـهُ، قالَ: نعم. ففسّـرَهُ، قالَ شـنٌّ: مـا هـذا مـن كلامِـكَ، فأخبِرنـي مَـن صاحبُـهُ؟ قـالَ: ابنـةٌ لـي، فخطبَهـا إليهِ فزوّجَـهُ إيّاهـا، وحملَهـا إلى أهلِـهِ. فلمّا عرفـوا عقلَهـا ودهاءَها قالـوا: وافقَ شـنٌّ طبقةَ.

(مَجمَعُ الأمثالِ، الميدانيُّ ، بتصرّفٍ).

الوَحدةُ السّابعةُ: تفاؤلٌ وأملٌ

رؤيتانِ متباينتانِ

بمَ تشعرُ تُجاهَ الأيّامِ القادمةِ؟ هل تنتظرُها بفرحٍ أم تتوجّسُ منها خِيفةً؟

تسيطرُ على سلوكِ النّاسِ أحيانًا نزعةٌ إلى توقّعِ الخيرِ والسّرورِ، في حينِ تغلبُ عليهِم في أحيانٍ أخرى نزعةٌ إلى توقّعِ الشّرِّ وسوءِ الطّالعِ، ويُطلَقُ على الحالةِ الأولى لفظُ التّفاؤلِ، أمّا الحالةُ الثّانيةُ فيُطلَقُ عليها لفظُ التّشاؤمِ.

وتميلُ كلُّ حالةٍ من هاتينِ الحالتينِ إلى أن تتكرّرَ وتتواترَ في مواقفَ شتّى من سلوكِ الإنسانِ، حتّى تصبحَ سمةً يصفُه النّاسُ بها، فيقولونَ: إنَّ فاطمةَ متفائلةٌ، مفعمةٌ بالأملِ، تثقُ في المستقبلِ، وتتوقّعُ الخيرَ، أمّا ليثٌ فمتشائمٌ، مليءٌ باليأسِ، يعتقدُ أنَّ ما سيأتي بِهِ المستقبلُ هو سوءُ الطّالعِ، فيتوقّعُ الشّرَّ ويرى أنّهُ متربّصٌ بِهِ.

فالتّشاؤمُ سمةٌ في الإنسانِ لها ما يدلُّ عليها، كأن يتشاءمَ الشّخصُ برقْمٍ معيّنٍ، أو برؤيةِ قطٍّ أسودَ لدى خروجِهِ منَ المنزلِ، أو بطيرٍ معيّنٍ كالبومِ، كما قد يتشاءمُ آخرونَ بأصواتٍ معيّنةٍ كنعيبِ الغِربانِ، ونباحِ الكلابِ.

وإذا كانَ التّشاؤمُ في اللّغةِ منَ الشّؤمِ، وهوَ بمعنى الشّرِّ، فإنَّ التّفاؤلَ منَ الفألِ أوِ الفالِ، وهوَ في اللّغةِ القولُ أوِ الفعلُ الّذي يُستبشَرُ بِهِ، كأنْ يكونَ الرّجلُ مريضًا فنسمعَ مَن ينادي عليهِ بقولِهِ: يا مُشافَى، أو يا مُعافَى، أو ترى عائلةً قُبَيلَ أحدُ أبنائِها

أَمْسَحُ الرَّمْزَ

فـي كلّيّةِ الهندسـةِ فلا تراهُـم يُطلِقونَ عليـهِ إلّا لقبَ المهنـدسِ، بقولِهم: أينَ المهنـدسُ؟ وذهـبَ المهنـدسُ، وجـاءَ المهنـدسُ، وهوَ لـم تَخْطُ قدمُـهُ بعدُ إلـى عتَبةِ الجامعـةِ؛ وما ذلكَ إلّا بدافـعِ التّفاؤلِ الّذي يعني الإعتقـادَ بإمكانيّةِ تحقيـقِ الرّغَبـاتِ في المسـتقبلِ، وبترجيحِ حـدوثِ الخيرِ أوِ الجانـبِ الجيّدِ مـنَ الأشـياءِ بدلًا مـن حـدوثِ الشّـرِّ أوِ الجانبِ السّـيّئِ.

وقـد أثبتَـتِ الدّراسـاتُ أنَّ هـذهِ النّظـرةَ الإيجابيّةَ يمكـنُ أن تؤثّـرَ تأثيرًا طبّيًّـا فـي الصّحّـةِ النّفسـيّةِ والجسـميّةِ للإنسـانِ، أمّـا النّظـرةُ السّـلبيّةُ فإنّهـا يمكـنُ أن تؤثّرَ تأثيرًا سـيّئًا في سـلوكِ الإنسـانِ وصحّتِهِ النّفسـيّةِ والجسـميّةِ، ويمكـنُ أن ترتبـطَ ارتباطًـا جوهريًّـا بالاضطرابـاتِ النّفسـيّةِ أوْ الإسـتعدادِ للإصابـةِ بها.

ويمكـنُ تجسـيدُ التّفـاؤلِ فـي حـالِ النّظـرِ إلـى النّصـفِ الممتلـئِ مـنَ الـكأسِ، أمّـا التّشـاؤمُ فيمكـنُ تجسـيدُهُ فـي حـالِ النّظرِ فـي النّصـفِ الفارغِ منهـا، وهـذا ما تنبّـهَ لهُ عالـمُ النّفسِ (مارتـن سـيليغمان) في نظرتِـهِ الجديدةِ إلـى علـمِ النّفـسِ؛ فقـدِ اتّخـذَ اتّجاهًـا جديـدًا فـى هـذا العلـمِ، سـمّاهُ علـمَ النّفـسِ الإيجابـيَّ، وهوَ العلـمُ الّذي لا يتوقّـفُ عندَ علاجِ الأمراضِ النّفسـيّةِ كمـا هـوَ شـأنُ علـمِ النّفـسِ السّـلبيِّ، بـل يبحـثُ عـن كشـفِ القـدُراتِ في الـذّاتِ الإنسـانيّةِ، ثمَّ عـن أسـاليبِ تنميتِها تنميةً منظَّمةً تزيدُ شـوقَ الإنسـانِ إلـى حيـاةٍ أكثرَ سـرورًا ونشـاطًا.

ومنَ الطّريفِ أنَّ (سِـيليغمان) درسَ ديوانَ شـاعرِنا العظيمِ (المتنبّي)، وكانَ معجبًـا بشـعرِهِ، وبالملامـحِ النّفسـيّةِ الإيجابيّـةِ فيـهِ، وقـدِ استشـهدَ (سِـيليغمان) بأبيـاتٍ كثيـرةٍ للمتنبّـي، منهـا استشـهادُهُ علـى فلسـفةِ المتنبّـي

القائمةِ على الإيمانِ بعدمِ الجدوى منَ الإقامةِ على الحزنِ والكآبةِ، فعلى الإنسانِ ألّا يسمحَ للهمومِ والمصائبِ بأن تُعطّلَ سعيَهُ في الحياةِ، ما دامَ فيه قلبٌ ينبِضُ، يقولُ المتنبّي:

لا تلقَ دهرَكَ إلّا غيرَ مكترثٍ ما دامَ يصحبُ فيهِ روحَكَ البدنُ

فما يدومُ سرورٌ ما سُررتَ بِهِ ولا يَردُّ عليكَ الفائتَ الحَزَنُ

(المفهومُ والقياسُ والمتعلّقاتُ، بدر محمّد الأنصاريّ، بتصرّفٍ).

الوَحدةُ الثّامنةُ: من عُيونِ الأدبِ العربيِّ

المَثَلُ الأعلى

قبلَ أن شْرَعَ المهندسُ في بناءِ بيتٍ يضعُ لَهُ رَسْمًا، وقبلَ أن يضعَ هذا الرّسمَ تكونُ في ذهنِهِ صورةٌ كاملةٌ للبيتِ يستملي منها الصّورةَ الّتي يرسُمُها. وكذلكَ الشّأنُ في واضعِ الرّوايةِ، قبلَ أن يُخرجَها إلى الوجودِ، فإنّها تكونُ مرسومةً في ذهنِهِ. وممّا ينبغي لكلِّ إنسانٍ أن تكونَ لديهِ صورةٌ كاملةٌ لِما يَوَدُّ أن تكونَ عليهِ حياتُهُ المستقبَلةُ، وكثيرًا ما يسألُ الإنسانُ نفسَهُ: ماذا أكونُ؟ ما الّذي أطمحُ أن أكونَهُ في مستقبلِ حياتي؟ والصّورةُ الّتي في ذهنِنا ونودُّ تحقيقَها ونَستملي منها لنُجيبَ عن هذهِ الأسئلةِ تُسمّى في عُرفِ الكتّابِ المعاصرينَ «المَثَلَ الأعلى».

وهوَ يُميّزُ الإنسانَ عن غيرِهِ منَ الحيوانِ، فإنّنا نرى الحيواناتِ تعيشُ على نمطٍ واحدٍ، فهيَ ليسَت كَالإنسانِ في رُقيٍّ مستمرٍّ، فمعيشةُ القطِّ قديمًا هيَ معيشتُهُ اليومَ، أمّا الإنسانُ فدائمُ الرّقيِّ، هوَ اليومَ غيرُهُ بالأمسِ؛ لأنّ أمامَهُ «مَثَلًا أعلى» يَجِدُّ في الوصولِ إليهِ.

ويجبُ أن يكونَ لكلِّ إنسانٍ «مَثَلٌ أعلى» يوجّهُ أعمالَهُ للوصولِ إليهِ؛ ذلكَ لأنَّ الإنسانَ في هذهِ الحياةِ مثَلُهُ كمثَلِ قائدِ السّفينةِ في البحرِ المتلاطمِ الأمواجِ، لا يمكنُهُ أن يصلَ إلى المرفأِ حتّى يعرفَ أينَ المرفأُ، ويرسُمَ خُطّةً للوصولِ إليهِ، وإلّا تَنكّبَ، وكانَت سفينتُهُ عُرْضَةً للارتطامِ.

وللمَثَلِ الأعلى تأثيرٌ في النّفوسِ؛ فهوَ دائمُ الشّخوصِ أمامَ نظرِ الإنسانِ يجذِبُهُ نحوَهُ، فأعمالُ

أَمْسَحُ الرَّمْزَ

الإنسانِ وطريقتُهُ في الحياةِ تدلُّ على مَثَلِهِ الأعلى. وتختلفُ المُثُلُ العُليا عندَ النّاسِ؛ فَهذا مَثَلُهُ الأعلى رجلٌ غنيٌّ، وذلكَ مَثَلُهُ إنسانٌ كاملُ العقلِ، قد تفوَّقَ في العلومِ وتضلّعَ منَ المعارفِ، وآخَرُ مَثَلُهُ وطنيٌّ يدافعُ عن حقوقِ وطنِهِ.

والإنسانُ الواحدُ يختلفُ مَثَلُهُ من حينٍ لآخرَ، والأمّةُ الواحدةُ تختلفُ مُثُلُها كلَّما تدرَّجَتْ في معارجِ الرُّقِيِّ، وليسَتِ الصّعوبةُ أن يجدَ الإنسانُ أوِ الأمّةُ مثلًا أعلى، فالمُثُلُ كثيرةٌ لا إحصاءَ لها، وإنَّما الصّعوبةُ اختيارُ أحسنِها وأنسبِها.

وكلُّ الّذي نستطيعُ أن نقولَهُ: إنّهُ ينبغي أن يكونَ المَثَلُ الأعلى للشّخصِ صورةً كاملةً تمثّلُ خيرَ إنسانٍ يستطيعُ هذا الشّخصُ أن يكونَهُ في كلِّ شأنٍ من شؤونِ حياتِهِ؛ ففي عملِهِ، مَثَلُهُ أن يكونَ أحسنَ ما يستطيعُ مِنْ جِدٍّ وأمانةٍ ومهارةٍ، وفي سياستِهِ لنفسِهِ مَثَلُهُ أن يكونَ ضابطًا لنفسِهِ، يعملُ بإرشادِ عقلِهِ، وفي معاملتِهِ للنّاسِ مَثَلُهُ أن يعامِلَهم كما يحبُّ أن يُعامَلَ، وأن يحبَّ الخيرَ لهُم كما يحبُّهُ لنفسِهِ.

وإنّ من أهمِّ العواملِ في تكوُّنِ المَثَلِ المنزلَ والمدرسةَ والدّينَ؛ فتربيةُ النّاشئِ المنزليّةُ، وما يسمعُهُ من أبويهِ، والنّظامُ الّذي يسيرُ عليهِ بيتُهُ، وما يراهُ في مدرستِهِ، والدّينُ الّذي يتديّنُ بهِ، وما يحويهِ من نظامٍ، وما يرسمُهُ من شكلِ الحياةِ الأخرى، كلُّ ذلكَ لهُ أكبرُ الأثرِ في تكوينِ المَثَلِ الأعلى.

ويكادُ يكونُ لكلِّ إنسانٍ مَثَلٌ أعلى، ولكنْ لا يشعرُ بهِ من أينَ أتاهُ، وسببُ ذلكَ أنَّ المثلَ الأعلى يتكوّنُ معَ الإنسانِ في نشأتِهِ وينمو بِنموّهِ؛

فـإذا خرجَ الشّـابُّ إلـى مُعترَكِ الحيـاةِ كانَ لتجارِبـهِ في عملِهِ، وتبـادُلِ الأخذِ والعطـاءِ مـعَ النّـاسِ مـا يحـدّدُ غايتَهُ فـي الحيـاةِ وينيـرُ أملَـهُ ويوضّـحُ مثلَهُ، وباتّسـاعِ نظرِ الإنسـانِ فـي الحياةِ وكِبَـرِ عقلِـهِ، يَكْمُلُ المثلُ وتتـمُّ أجزاؤهُ.

والمَثَـلُ الأعلـى عُرضـةٌ للكمالِ والاتّسـاعِ، وعُرضـةٌ للنّقـصِ والضّيقِ، فالعمّـالُ الّذيـنَ يقضـونَ حياتَهـم فـي عمـلٍ محـدودٍ، ثـمَّ لا يصادفـونَ بعدَ قضـاءِ نهارِهـم مـا يفيـدُ عقلَهُـم، أو يوسّـعُ نظرَهُـم، يَضِيـقُ مَثلُهُـم، ويتحدّدُ أملُهُـم، فَتغـدو حياتُهـم يومًـا واحـدًا مُتكرّرًا.

وفـي ضيقِ المَثـلِ الأعلى خطـرٌ عظيمٌ، فالمَثـلُ الأعلى هوَ الّـذي يبعثُ فـي الإنسـانِ روحَ العمـلِ، ويزيـدُ فـي نشـاطِهِ وقوّتِـهِ، وهـوَ الّـذي يصحّـحُ حُكْمُـهُ على الأشـياءِ؛ فالإنسـانُ عـادةً عندَ الحُكمِ على شـيءٍ أو نقدِهِ يقيسُـه بمَثلِـهِ، ثـمَّ يحكـمُ بالخطـأِ أوِ الصّـوابِ، وبالخيرِ أوِ الشّـرِّ؛ فإذا تحـدّدَ المثلُ وضـاقَ قلَّ نشـاطُهُ وسـاءَ حكمُـهُ، وعلـى العكسِ مـن ذلـكَ إذا ترقّـى مَثَلُهُ.

(كتابُ الأخلاقِ، أحمد أمين، بتصرّفٍ).

الوَحدةُ التّاسعةُ: الصّحّةُ تاج مدنٌ تختنقُ، وحقولٌ تذبُلُ

عندما دوّتِ انفجاراتُ مستودعِ الموادِّ الكيميائيّةِ في مدينةِ (تيانجين) عامَ (2015م) وصلَت أصداؤُها المدمّرةُ إلى الشّقِ السّكنيّةِ، فَملأتِ الأجواءَ بالخوفِ والذّعرِ، وغمرَت قلوبَ السّكّانِ بالقلقِ. لم يكنِ الدّمارُ المادّيُّ وحدَهُ ما أرعبَ النّاسَ، بل ذلكَ الإحساسُ العميقُ بالعجزِ أمامَ خطرٍ مفاجئٍ.

وبعدَ بضعةِ أيّامٍ، هطلَ مطرٌ على المدينةِ معَ بُقَعٍ صفراءَ رَغْويّةٍ، وهوَ ما رسّخَ شعورًا عامًّا بالخطرِ المُحْدِقِ، وفي اليومِ التّالي، ظهرَت آلافٌ منَ الأسماكِ الميْتةِ على ضفافِ النّهرِ على شكلِ كتلةٍ كبيرةٍ منَ اللّونِ الأبيضِ الفضّيِّ، فظنَّ بعضُ السّكّانِ أنَّ الحياةَ في هذهِ المدينةِ تلفِظُ أنفاسَها الأخيرةَ.

وعَكستِ التّداعياتُ البيئيّةُ الّتي طالتِ العناصرَ الأساسيّةَ من هواءٍ وماءٍ وتربةٍ صورةَ التّلوّثِ الصّناعيِّ؛ فالضّبابُ الدّخانيُّ الكثيفُ الّذي يحجُبُ الشّمسَ ويسبّبُ ارتفاعًا في نسبِ دخولِ الأشخاصِ للمستشفياتِ، ويُعرَفُ بكارثةِ الضّبابِ الدّخانيِّ، يتصدّرُ عناواتِ الصّحفِ الرّئيسةَ؛ فقد حملَتِ الرّياحُ والأمطارُ الضّبابَ الدّخانيَّ الأسودَ والغبارَ إلى البلَداتِ المجاورةِ.

ثمّةَ ما هوَ أسوأُ من ذلكَ، فَقد نَقلَت قنواتُ الرِّيِّ مياهَ الصّرفِ منَ المناجمِ والمصاهرِ إلى

أَمْسَحُ الرَّمْزَ

الحقولِ على بُعدِ أميالٍ، وبدأَت بعضُ الأنهارِ تتحوّلُ بوضعٍ غيرِ مفهومٍ إلى اللّونِ الأحمرِ، وظهرَت كمّياتٌ كبيرةٌ منَ الأسماكِ الميْتةِ بينَ عَشِيَّةٍ وضُحاها محذّرةً منِ انهيارٍ بيئيٍّ خطيرٍ، أمّا الطّحالبُ فحوّلتِ البحيراتِ إلى اللّونِ الأخضرِ اللّامعِ الّذي أنذرَ بكارثةٍ تتسارعُ وتيرتُها تسارعًا مقلقًا، وتزدادُ حدّتُها يومًا بعدَ يومٍ.

وفي مواجهةِ هذا الوضعِ البيئيِّ المتدهورِ، وما رافقَهُ من ضغوطٍ شعبيّةٍ ومخاوفَ صحّيّةٍ متزايدةٍ، بدأَتِ السُّلطاتُ في العاصمةِ (بكّينَ) باتّخاذِ خطُواتٍ جادّةٍ لمعالجةِ المشكلةِ، فحدّثَتِ المصانعَ، ونقلتِ الصّناعاتِ المستهلِكةَ للفحمِ بعيدًا عنِ المدنِ.

وفي عامِ (2011م)، صدمَت إحدى المجلّاتِ القرّاءَ بصورةٍ على غلافِها لنبتةِ أُرْزٍ تحوّلَتْ حبوبُها إلى اللّونِ الفضّيِّ، كاشفةً عن تلوّثِ الأُرْزِ بالكادميومِ نتيجةَ تلوّثِ التّربةِ والمياهِ؛ إذ أظهرَت نتائجُ التّقريرِ المتعلّقةُ بهذهِ الحادثةِ أنَّ خُمسَ الأراضي الصّالحةِ للزّراعةِ ملوّثٌ تقريبًا. وعلى الرَّغمِ من خطورةِ الوضعِ، لم يوضّحِ التّقريرُ كيفيّةَ توزيعِ التّلوثِ أو يصرّحْ بأكثرِ المناطقِ تأثّرًا، فزادَ ذلكَ من قلقِ سكّانِ المدنِ الّذينَ كانوا بالفعلِ متوجّسينَ من سلامةِ الغذاءِ.

وبينَما يقلقُ المواطنونَ عادةً بشأنِ الغذاءِ والهواءِ، تبقى المخاطرُ الكبرى كامنةً في مياهِ الشّربِ والتّربةِ؛ فالاستنشاقُ المتكرّرُ لمخلّفاتِ المعادنِ الثّقيلةِ يحدثُ عبرَ الغبارِ الّذي يثيرُهُ الأطفالُ في أثناءِ اللّعبِ، والجسيماتِ النّاتجةِ عن معاولِ المزارعينَ، أوِ المَركباتِ الّتي تعبرُ الطّرقاتِ التّرابيّةَ يوميًّا، لتصبحَ التّربةُ نفسُها مصدرًا صامتًا لتلوّثٍ لا

يُدركُهُ النّاسُ إلّا بعدَ فواتِ الأوانِ.

وقد أظهرَت فحوصاتُ مستوياتِ الرّصاصِ لدى الأطفالِ المُقيمينَ قربَ أحدِ المصانعِ ارتفاعًا ملحوظًا؛ ممّا دفعَ السّلطاتِ إلى نقلِ المصنعِ إلى الجانبِ الآخرِ منَ المدينةِ. أمّا في وادي (هونان)، فقد تسبّبَ تسرّبُ مادّةِ الزّرنيخِ في تحذيرِ القَرويّينَ من أكلِ المحاصيلِ أو شربِ المياهِ المحلّيّةِ، ومعَ ذلكَ أظهرَت فحوصاتُ شَعرِ الأطفالِ بعدَ أربعةِ أشهرٍ مستوياتٍ مرتفعةً مماثلةً لمستوياتِ كبارِ السّنِّ منَ الزّرنيخِ في أجسادِهِم، متسبّبةً في خدَرٍ ووخْزٍ في أطرافِ الأطفالِ، وتشنّجٍ في عضلاتِهِم.

ونشرَتِ الصّينُ دراسةً عن تلوّثِ التّربةِ، مُقترحةً طرائقَ، مثلُ: كشطِ التّربةِ الملوّثةِ وحرقِها ودفنِها، لكنَّها مكْلفةٌ جدًّا، وغيرُ مناسبةٍ للأراضي الزّراعيّةِ جميعِها، وجاءَت هذهِ الدّراسةُ نتيجةَ التّأخّرِ في تنفيذِ الإصلاحِ اللّازمِ، وهوَ ما أبقى التّربةَ ملوّثةً مدّةً أطولَ، وأدّى إلى تفاقمِ الأضرارِ، وزيادةِ التّكاليفِ الخفيّةِ.

إنَّ الخِياراتِ الّتي تبدو للوهلةِ الأولى أبطأَ تنفيذًا وأقلَّ تكلِفةً، قد تكونُ محمَّلةً بأعباءٍ اقتصاديّةٍ وبيئيّةٍ واجتماعيّةٍ كامنةٍ؛ فكلّما استغرقَ الأمرُ وقتًا أطولَ لمعالجةِ المشكلةِ، بقيتِ التّربةُ خاملةً زمنًا أطولَ. وحينئذٍ تغدو عمليّةُ الإصلاحِ أكثرَ تعقيدًا وارتفاعًا في التّكلِفةِ، من حيثُ الموارِدُ أوِ الوقتُ أوِ التّأثيراتُ الجانبيّةُ.

(من مقالاتِ (لوسي هورنبي)، عامَ (2015م)، بتصرّفٍ).

الوَحْدةُ العاشرةُ: منَ المسرحِ العربيِّ

التّاريخُ والمسرحُ العربيُّ

أخـذَ بعـضُ الطّلبـةِ يُلحّـونَ عليَّ كـي أحدّثَهُـم عـن كيفيّـةِ تأليـفِ المسـرحيّةِ النّاجحـةِ، وأثـارَ إلحاحُهُـم فـي نفسـي تسـاؤلًا مُشْـفِقًا؛ حتّـى خشِـيتُ لو اسـتجبتُ إلـى رغبتِهـم أن أكـونَ كمنْ يلقِّـنُ طلبتَـهُ كيفيّـةَ العَوْمِ وهُـم علـى مقاعـدِ الصّفـوفِ، ثـمَّ يُرسـلُهم بعدَ ذلـكَ إلـى البحـرِ؛ فيغرقونَ فيهِ .

ومـعَ ذلـكَ، فإنَّ رغبتـي في الاسـتجابةِ لكلِّ مَطْلـبٍ ثقافيٍّ يتقـدّمُ بهِ إليَّ طلبتـي جعلتنـي أُطيـلُ النّظرَ فـي الكيفيّـةِ الّتـي أَسـتطيعُ بهـا أن أُعينَهُم على تحقيـقِ طموحِهـم الأدبيِّ المشـروعِ، وعنـدَ ذلكَ تذكّـرتُ مـدارسَ الأدباءِ، وهـيَ مـدارسُ تدخلُهـا براعـمُ الأدبِ؛ لتتفتّـحَ، وتثمـرَ فيهـا ثمـراتٍ. وهذهِ المـدارسُ لا يمكـنُ أن تخلُـقَ تلكَ البَذرةَ، وإنّمـا تسـتطيعُ أن تتعهّدَها بالرِّيِّ حتّى تنمـوَ وتُثمرَ.

إنَّ الأسـتاذَ يسـتطيعُ توجيـهَ طلبتِـهِ ذَوي الطّمـوحِ الأدبـيِّ الوجهـةَ الصّالحـةَ لتحقيقِـهِ، فينصحُهـم بـأن يقـرؤوا بعنايـةٍ كلَّ مـا يمكـنُ أن يقرؤوه من عيـونِ المؤلَّفاتِ فـي الفنِّ الّذي يريدونَ ممارسـتَهُ، كالمسـرحِ، أوِ القصّـةِ، أوِ الشّـعرِ.

وكانَ مـنَ الطّبيعـيِّ أن أُحدّثَهـم أوّلَ الأمـرِ عـنِ المصـادرِ الّتـي يمكنُ أن يسـتقوا منها ما يريـدونَ تأليفَهُ

أَمْسَحُ الرَّمْزَ

من مسرحيّاتٍ، وأوّلُ هذهِ المصادرِ هوَ التّاريخُ، وإن يكنْ منَ الواجبِ أن يفطنَ الأديبُ النّاشئُ إلى أنَّ عملَهُ غيرُ عملِ المؤرّخِ؛ فهوَ لا يكتبُ القصّةَ أوِ المسرحيّةَ التّاريخيّةَ لمجرّدِ أن يعرفَ الماضيَ أو لاستخلاصِ العبرةِ منه، بل هوَ يختارُ من أحداثِ التّاريخِ ما يراهُ مواتيًا لعلاجِ مشكلةٍ إنسانيّةٍ، أو ما يرى فيهِ وعاءً يصبُّ فيهِ بعضَ الحقائقِ والتّوجيهاتِ الّتي يفتقرُ إليها مجتمعُهُ، فلا يسعى في أدبِهِ إلى عَرضِ الحقيقةِ التّاريخيّةِ المُجرّدةِ، وإنّما يستطيعُ أن يجدَ ضالّتَهُ في مصادرِ التّاريخِ، وأن يتصرّفَ فيها بحريّةٍ وَفقًا لهدفِهِ وأصولِ فنّهِ.

ومن حسنِ الحظِّ أنَّ الكتبَ الّتي كتبَها المؤرّخونَ العربُ القدماءُ تُعدُّ من مصادرِ التّاريخِ ومن مادّتِهِ الخامِ، وهيَ كثيرًا ما تَستَطرِدُ إلى قصصٍ تصلحُ لأن تُستوحى منها مسرحيّاتٌ ذاتُ مادّةٍ أدبيّةٍ خِصبةٍ، وكذلكَ يقالُ في كثيرٍ منَ المؤلّفاتِ الأدبيّةِ القديمةِ في الأدبِ العربيِّ، مثلُ: كتابِ الأغاني للأصفهانيِّ، وكتابِ نَفْحُ الطّيبِ للمَقّريِّ، وغيرِهما.

ولقد حدثَ أن أَحلْتُ طالبًا سألني عن مصدرٍ يستطيعُ أن يستقيَ منهُ مادّةً لمسرحيّاتٍ مدرسيّةٍ تعليميّةٍ على كتابِ الأمثالِ العربيّةِ للمَيْدانيِّ، ولم تكدْ تمضي أيّامٌ حتّى عادَ إليَّ وقد استوحى مسرحيّةً قصيرةً من قصّةِ النّعمانِ وغضبِهِ الّتي أوردَها الميدانيُّ تفسيرًا للمثلِ العربيِّ السّائرِ: «إنَّ غدًا لناظرِهِ قريبٌ»، فاغتبطْتُ بهذهِ النّتيجةِ وحرَصتُ على إذاعتِها، لعلَّها تفيدُ غيرَهُ من روّادِ الأدبِ.

ففي الأدبِ العربيِّ تأخّرَ ظهورُ المسرحِ؛ بسببِ طبيعةِ الثّقافةِ العربيّةِ

القديمةِ الّتي قامتْ على الشّعرِ والخَطابةِ والرّوايةِ الشّفويّةِ، لا على التّمثيلِ والعرضِ البصريِّ. ومعَ بدايةِ النّهضةِ في القرنِ التّاسعَ عشرَ، بدأَ الكتّابُ العربُ يتأثّرونَ بالمسرحِ الأوروبيِّ، فظهرتِ المحاولاتُ الأولى في لُبنانَ ومصرَ على يدِ مارونَ النّقاش، ويعقوب صنّوع، ثمَّ تطوّرَ الفنُّ المسرحيُّ على يدِ توفيق الحكيم الّذي مزجَ الفلسفةَ بالفنِّ.

وقد واجهَ المسرحُ العربيُّ صعوباتٍ كثيرةً في بداياتِهِ؛ فالجمهورُ لم يكن معتادًا هذا الفنَّ الجديدَ، ودُورُ العرضِ كانت محدودةً، والممثّلونَ قليلونَ، والنُّقادُ نادرونَ. ومعَ ذلكَ، ظلَّ المسرحُ العربيُّ ينمو شيئًا فشيئًا، حتّى أصبحَ وسيلةً للتّعبيرِ عن قضايا المجتمعِ، وميدانًا لطرحِ الأسئلةِ حولَ الحريّةِ والعدالةِ والهُويّةِ والإنسانِ.

(في المسرحِ المصريِّ المعاصرِ، محمّد مندور، بتصرّفٍ).